

الأقنعة الزائفة
تخفّي الإلحاد وراء العقلانيّة العلميّة

Daleel

Al-Daleel Foundation
for Doctrinal Studies

سلسلة إصدارات مؤسسة الدليل | 5 | الكراس

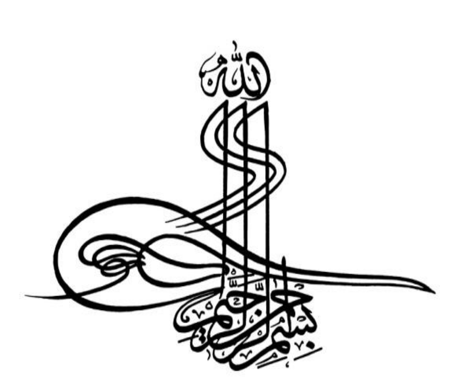
سلسلة إصدارات مؤسسة الدليل | 5

الأقنعة الزائفة

تخفّي الإلحاد وراء العقلانيّة العلميّة



http://aldaleel-inst.com
www.facebook.com/aldaleel.inst



هويّة الكراس

اسم الكراسة: الأقنعة الزائفة

المؤلّف: الدكتور محمد ناصر

المراجعة العلميّة: المجلس العلميّ في مؤسّسة الدليل

التقويم اللغويّ: علي گيم

تصميم الغلاف: محمدحسن آزادگان

الإخراج الفنّيّ :فاضل السوداني

الناشر: مؤسّسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة



http://aldaleel-inst.com
www.facebook.com/aldaleel.inst

كلمة المؤسّسة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير الأنام والمرسلين أبي القاسم محمّدٍ وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وبعد.

تعدّ المنظومة الفكريّة العقديّة من أهمّ دعائم شخصيّة الإنسان وتميّزه البشريّ؛ فهي الّتي تحدّد نظرته العامّة للكون وعلاقته به، ولها تأثيرٌ مباشرٌ على مساره السلوكيّ وطبيعة تعاطيه مع محيطه ونمط الحياة الّتي يعيشها، هٰذا على صعيد الفرد، وأمّا على صعيد المجتمع فإنّ المنظومة الفكريّة العقديّة تنعكس على مجمل العلاقات بين أفراد المجتمع، كما أنّها تحدّد نوع النظم السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة الّتي تحكم تلك العلاقات.

وعلى هٰذا فالمنظومة الفكريّة والعقديّة تتحكّم بمصير الإنسان، فإمّا أن تصنع له سعادةً واستقرارًا وحياةً كريمةً، وإمّا أن تغرقه في شقاءٍ وفوضى وإذلالٍ.

فينبغي للإنسان أن يعتني بعقيدتـه، وأن يطمـئنّ لسـلامتها مـن الانحراف والتشويه، وأن يبادر لمعالجة ما يشوبها بسبب الشبهات.

فاليوم وفي ظلّ الظروف الراهنة الّـتي يعيشـها العـالم الإسـلاميّ بشكلٍ عامٍّ، وبلدنا العراق بشكلٍ خاصٍّ، ندرك أنّ هناك تهديدًا كبيرًا للفكر والعقيدة الإسلاميّة الحقّـة ومـن دوائـر مختلفـةٍ، ونستشـعر حاجة مجتمعنا الماسّة والملحّة لبيان معالم العقيدة الصحيحة، ورفـع الشبهات الّتي ألبست على بعض الناس عقائدهم.

من هنـا جـاء مشـــروع مؤسّســة الدليـل للبحـوث والدراسـات العقديّة التابعة للعتبـة الحسـينيّة المقدّسـة؛ تلبيـةً لهٰـذه الحاجـة، وليحمل على عاتقه مسؤوليّة التصدّي لدفع الشبهات، والتأكيـد على العقائد الحقّة بالوسائل والإمكانيّات المتاحة؛ وذٰلك للمساهمة في سدّ الفراغ الفكريّ العقديّ الّذي يعاني منه المجتمع.

ومن أبرز تلك الوسائل المعتمـدة في مشـــروعنا أسـلوب البحـث وفق رؤيةٍ علميّةٍ موضوعيّةٍ، وبخطابٍ سلسٍ شيّقٍ يتناغم مع أغلـب شرائح المجتمع، فكان قرار المجلس العلميّ الموقّر في المؤسّسة إطلاق مشروع سلسلة الكرّاسة العقديّة، وهي مؤلّفـاتٌ مـوجزةٌ في شـكلها وحجمها، كبيرةٌ في مضمونها وأهدافها؛ لمعالجة موضـوعاتٍ محـدّدةٍ، وحسب الحاجة الفعليّة.

وبعد انفتاح الساحة الفكريّة والعقديّة وتطوّر وسائل التواصل الاجتماعيّ وسهولة اقتنائها في عراقنا الحبيب وبقيّة الدول الإسلاميّة، ونتيجة استغلال ذٰلك من بعض الجهات والشخصيّات ذات المشاريع الفكريّة المنحرفة عن جادّة الصواب، في نشر الأفكار المعادية للاعتقاد الدينيّ، ومن أهمّها الفكر الإلحاديّ واللادينيّ وفصل الدين عن الحياة، رأت المؤسّسة طرح مجموعةٍ من البحوث على شكل كراريس توضّح حقيقة مثل تلك الأفكار والأطروحات، فكان منها هٰذه الكرّاسة الموسومة (الأقنعة الزائفة.. تخفّي الإلحاد وراء العقلانيّة العلميّة).

وختامًا تتوجّه مؤسّسة الدليل بالشكر الجزيل لمسؤول وحدة الإلٰهيّات فيها الدكتور **محمد ناصر**؛ لما بذله من جهدٍ قيّمٍ في كتابة هٰذا البحث، ونرجو له التوفيق والسداد، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّدٍ وآله الطيّبين الطاهرين.

تمهيدٌ

هي العقلانيّة.. ما أروعها من كلمةٍ، وما أرقاها من دعوى! أن تكون عاقلًا أمنية كلّ إنسانٍ، حتّى أولٰئك الّذين لا يفقهون شيئًا من معناها. وفي المقابل، ما أصعبها من مهمّةٍ، وما أجهدها من غايةٍ! فأن تكون عاقلًا تحفةٌ قلّ نيلها، وعزّ بلوغها؛ فهي الّتي تجعل منك حريصًا على معرفة الحقّ لأنّه حقٌّ، وعلى فعل الخير لأنّه خيرٌ، وتجعلك قادرًا على سلوك طريقهما، ومن خلالها تتأسّس العلوم الحقيقيّة، ويستقيم سلوك الإنسان كما ينبغي له أن يكون.

ولأنّها كذٰلك، لا تكاد تجد الناس إلّا مدّعين لها، واصفين أنفسهم بأنّهم من أهلها، رغم اختلاف مذاهبهم وتباين مسالكهم، وتناقض اعتقاداتهم. فمن ذا الّذي يقرّ بأنّه يعتقد الباطل ويختار الشرّ، ومن ذا الّذي يعدّ نفسه أحمق أو سفيهًا؟! ومن ذا الّذي يرفض الأخذ بنتائج العلوم الحقيقيّة، ويصف عقائده بالخرافة والخطإ؟! فالكلّ بنظر أنفسهم عقلاء، ولٰكن في المقابل، فإنّ كلّ أمّةٍ أو طائفةٍ من البشر ترى مخالفيها بعين الجهل والانحراف في الفكر والعمل.

ومن بين هٰذه المذاهب والطوائف الفكريّة والعمليّة، تجد الملحدين

الجدد[1] في عصرنا الراهن في مقدّمة المدّعين لاتّباع العقل والعلم، حيث جعلوا من ادّعائهم للعقلانيّة ولاتّباعهم للعلوم الحقيقيّة ولتمسّكهم بالمعايير السلوكيّة المؤمّنة للسعادة الإنسانيّة، شعارًا يقدمون من خلاله عقيدتهم، وسلاحًا يحاربون به أعداءهم ومخالفيهم الّذين ما فتئ الملحدون يصفونهم بأنّهم أهل الخرافة ومنبع الجهل وأصل الشرّ.

ولست أعدّ الملحدين في مقدّمة المدّعين للعقل والعقلانيّة، إلّا لأنّهم لم يتركوا فرصةً للحديث أو الكتابة إلّا وروّجوا لأنفسهم من خلالها، وهاجموا مخالفيهم عبرها، حتّى كادوا أن يجعلوا من دعواهم عرفًا راسخًا لكثرة ما كرّروا وشدّة ما أكّدوا على امتيازهم المعرفيّ والعلميّ والأخلاقيّ عن المتديّنين الّذين يمثّلون في نظرهم مظهر الاتّباع الأعمى للخرافة، ومصنعًا أساسيًّا للشرّ والفساد.

وأمام هٰذا النوع من التسويق الإعلاميّ للعقيدة الإلحاديّة، كان لا

---

(1) وهم أتباع الحركة الإلحاديّة المعاصرة الّتي بدأت أوائل القرن الحادي والعشرين، وبالتحديد عام 2004. تقوم هذه الحركة بانتقاد الأديان ومطلق الاعتقاد بوجود إلٰهٍ وترفض التعايش مع التقاليد والمعتقدات الدينيّة، وتدّعي اعتماد العقل والعلم التجريبيّ مرجعيّةً عليا ووحيدةً لاستقاء المعرفة؛ ولذٰلك تسعى إلى تخليص المجتمع الإنسانيّ من كلّ ما هو دينيٌّ، لتستبدل به العقل والعلم. وأشهر رموزها الفرسان الأربعة: ريتشارد دوكينز، وسام هاريس، وكريستوفر هيتشنز، ودانيال دينت.

بدّ من اتّخاذ الموقف المناسب، والمتمثّل بترك الخوض مبدئيًّا في تفاصيل القضايا الدينيّة وتحديد الدين الصحيح، والتركيز بدلًا من ذٰلك على القاعدة الأساسيّة الّتي انطلق منها الملحدون الجدد بجعلهم أنفسهم أبناء العقل والعقلانيّة العلميّة؛ لأنّه - كما سيعرف القارئ الكريم - إن كان هناك تدليسٌ وتزييفٌ قد جرى في حقبةٍ من حقب التاريخ، فإنّه لن يرقى إلى فظاعة وشناعة التزييف والتدليس الّذي مارسه ويمارسه الملحدون الجدد، خصوصًا فيما يخصّ ادّعاءهم هٰذا. ومهما كان هناك من خرافاتٍ مضحكةٍ قد سمع بها المرء وتنسب إلى أمّةٍ من الأمم فإنّها تغدو أمرًا معقولًا ظاهرًا إذا ما قورنت بالأسس الّتي بنى عليها الملحدون مواقفهم[1]!

لقد أسرف الملحدون الجدد في تمجيد طريقتهم ووصفهم أنفسهم بأنّهم أتباعٌ للعقل والعلم، والسائرون سبيل السعادة الإنسانيّة، حتّى صرنا على أعتاب تحريف معنى العقل والعلم والسعادة الإنسانيّة، كما سبق وأن أصاب ذٰلك معنى السفسطة الّتي كانت تعني المهارة الفنّيّة والعلمية فصارت رمزًا تاريخيًّا وعلميًّا للمشاغبة والتضليل الفكريّ، وكما

(1) وهٰذا ما سيتبيّن للقارئ فيما بعد بشكلٍ كافٍ نسبيًّا.

أصاب أيضًا معنى الفلسفة في القرون الثلاثة الأخيرة، حيث تحوّلت إلى مجرّد الممارسة العقليّة التأمّليّة بلا منهجٍ مضبوطٍ وبلا فائدةٍ عمليّةٍ أو حتّى قيمةٍ علميّةٍ ترجى منها، هٰذا بعد أن كانت تعني المعرفة العلميّة المتقنة وفقًا للمنهج العقليّ البرهانيّ بكلّ ما هو كائنٌ وما ينبغي أن يكون [1].

ومن هنا، سوف يعنى هٰذا البحث فقط بتوجيه البوصلة نحو فضح ادّعاء العقلانيّة واتّباع سبيل العلم والسعادة الإنسانيّة من قبل الملحدين، بدعوى أنّها أساسٌ للإلحاد، وتبيين أنّهم مارسوا ويمارسون عين ما اتّهموا به المتديّنين، مع إظهار عمق الهوّة بين نظرتهم الساذجة والاختزاليّة إلى الدين الإلٰهيّ، وحقيقة الدين الإلٰهيّ، بمعزلٍ عن التفاصيل والخلافات المذهبيّة الّتي لها شأنٌ آخر لا يعنينا هنا الخوض فيه أو الدفاع عنه على الإطلاق. هٰذا كلّه مع الاعتناء ببيان كيف أنّهم استغلّوا العلوم التجريبيّة أسوأ استغلالٍ وأبشعه، وتظاهروا باتّباع سبيل السعادة الإنسانيّة؛ ليظهر للقارئ بعد كلّ ذٰلك وبكلّ وضوحٍ أنّ كلّ هٰذه الادّعاءات ليست سوى أقنعةٍ زائفةٍ تخفّى خلفها الملحدون، ومن

---

(1) وقد بحثت هذا الأمر في كتابي (الفلسفة.. تأسيسها تلويثها تحريفها) نشر أكاديمية الحكمة العقليّة 2014.

ثمّ لينجلي لكلّ من تأثّربهم كيف أنّهم أبعد ما يكونون عن أن ينطبق عليهم أنّهم أهل العقل وأتباع العلم وسبيل السعادة الإنسانيّة.

وبطبيعة الحال، فإنّ المقام يحدّد أسلوب الخطاب، ومقامنا يقتضي- التبسيط والتسهيل، والاختصار المانع من الملل والحافظ لجوهر الفكرة؛ حتّى تكون الكلمات قابلةً للولوج من تحت ركامٍ حجب العقول عن بصيرتها، ومستساغةً عند أسماعٍ أنست صممها وسط الضوضاء والثرثرة.

أيّ عقلانيّةٍ؟!

عندما نتكلّم عن العقلانيّة، فنحن نتكلّم عن جعل العقل محورًا وحاكمًا في تحديد كلٍّ من الاعتقادات والخيارات، من خلال القيام بالدور التدبيريّ لعمليّة المعرفة وعلميّة السلوك. فهو يحدّد المصادر المعرفيّة الّتي تمتلك أهليّة الاستعمال للقيام بهٰذا الدور، كما يحدّد الآليّات الّتي تحتوي على عناصر النجاح في استعمال تلك الأدوات وتوظيف ما تعطيه من معلوماتٍ ومعارف؛ تمهيدًا للربط بينها بالنحو المنتج للمعرفة الصحيحة بالحقائق، وبما ينبغي أن نسعى لتحقيقه.

ولذٰلك كان البحث حول العقلانيّة بحثًا عن المنهج المعرفيّ الّذي يشكّل قوام أيّ معرفةٍ علميّةٍ، فلا علم بالواقع قبل العلم بكيفيّة

تحصيله، تحصيلًا مطابقًا له كما هو في نفسه؛ ولذٰلك كان علم المنطق[1] - الّذي هو العلم الباحث عن معايير تحديد المعرفة الصحيحة من الفاسدة، آلة كلّ العلوم، وعليه يتّكئ ضمان صحّة الممارسة المعرفيّة لبناء أيّ علمٍ من العلوم - علمًا قائمًا بنفسه، لا يصحّ من أيّ أحدٍ ادّعاء العقلانيّة إلّا في طول الدراية التخصّصيّة به، وبعد اكتساب ملكة تطبيقه. والسبب في ذٰلك يرجع إلى أنّ استعمال العقل ليس مثل استعمال الحواسّ، فنحن لسنا نحتاج إلى أن نتعلّم كيف نستخدم أعيننا وآذاننا وأنوفنا وغير ذٰلك، كما لم يحتج أيّ حيوانٍ مهما صغر إلى أن يتعلّم كيف يستخدم حواسّه. أمّا استعمال العقل فنحن نحتاج إلى أن نتعلّم الكيفيّة الّتي تجعل من استعمالنا إيّاه موجبًا لحصول المعرفة الصحيحة، طالما أنّ الممارسة العقليّة قابلةٌ لعدّة

(1) لست أقصد هنا القسم المسمّى بالمنطق الصوريّ كما هو مشهورٌ متداولٌ، بل ما يشمله ويشمل القسم الآخر المسمّى بالمنطق المضمونيّ أو المادّيّ، الّذي تمّ إقصاؤه وتجاهله من قبل الاتّجاهات السلفيّة والصوفيّة والكلاميّة الدينيّة، ومن قبل الاتّجاهات العلمانيّة المعاصرة، بدءًا من فرانسيس بيكون وجون لوك على وجه الخصوص وبعده ديفيد هيوم، وصولًا إلى عصرنا الحاضر، حيث يتربّع برتراند رسل على عرش المتجاهلين له والمبخسين فيه، بادّعاء غموض مبادئه كما فعل جون لوك من قبل، دون أن يقدّم أيٌّ منهم نقدًا أو إبطالًا لهٰذا المنهج بنحوٍ مباشرٍ وحقيقيٍّ. وسوف تجد ما يتعلّق بهٰذا الأمر في كتابي (الفلسفة.. تأسيسها وتلويثها وتحريفها) و(نهج العقل).

كيفيّاتٍ وأنماطٍ بعضها يوصلنا إلى الصواب وبعضها لا يوصلنا إليه. وبتفصيلٍ أكثر، طالما أنّ الممارسة العقليّة لعمليّة المعرفة تتضمّن أوّلًا انتخاب المعلومات من مصادرها[1]، وثانيًا الربط بينها لإنتاج معلوماتٍ أخرى[2]، وطالما أنّ تحديد المصادر الصالحة للاتّكاء عليها وتحديد طرق الربط الصالحة للاستعمال عندما نحاول اكتساب المعرفة بموضوعٍ ما، ليس أمرًا نقوم به دون الحاجة إلى تعلم كيفيته؛ فهٰذا يعني أن ادّعاء العقلانيّة لا يمكن أن يكون صادقًا إلّا ممّن امتلك أوّلًا المعرفة بكيفيّة تحديد كلّ ذٰلك، وامتلك ثانيًا المهارة في تطبيقها وممارستها.

وحتّى يصحّ من الملحدين الادّعاء بأنّهم يتّبعون العقل، وأنّهم يتذرّعون بالعقلانيّة منهجًا لتحديد موقفهم الإلحاديّ؛ لا بدّ من أن

---

(1) يعدّ محيط النشوء والانفعالات النفسيّة من أبرز المصادر غير الصالحة للاتّكاء عليها في مقام الأخذ للمعلومات الّتي يتّخذها المرء منطلقًا في ممارسة المعرفة. فليس كلّ ما نشأ المرء على التصديق به في محيطه سيكون صادقًا وكذا العكس، وليس كلّ حكمٍ ناسب الانفعال والشعور يكون حكمًا صادقًا وكذا العكس.

(2) لعلّ أجلى وأبرز الأنماط والكيفيّات الفاسدة لعمليّة الربط بين المعلومات، تلك الّتي تعتمد على المشابهة المحضة الّتي يمارسها البشر بدءًا من الطفولة وحتّى مرحلة الشيخوخة، ما لم يلتفت المرء إلى فسادها من خلال تعلّم أنّه لا بدّ من إحراز كون جهة الشبه هي العلّة الحقيقيّة وراء حكمنا على شيءٍ بحكمٍ ما قبل أن نعدّي ذٰلك الحكم ونسنده إلى شيءٍ آخر مشابهٍ له من تلك الجهة.

يكونوا على درايةٍ تخصّصيّةٍ بعلم المنطق والمنهج المعرفيّ الّذي يبيّن كيف تكون الممارسة المعرفيّة موصلةً إلى الصواب. ولٰكن مع ذٰلك فلن أكون متطرّفًا بأن أطلب من كلّ الملحدين واحدًا واحدًا أن يكونوا على درايةٍ بكلّ ذٰلك؛ إذ إنّ أهل الاختصاص في مجالٍ ما، هم فئةٌ خاصّةٌ من الناس ترجع إليهم باقي الفئات، وبالتالي فليكن كافيًا بالنسبة إلى الموقف الإلحاديّ أن يكون المنظّرون والكبراء الّذين يرجع إليهم جماهير الملحدين، حائزين على رتبة الاختصاص في علم المنطق ونظريّة المعرفة؛ ليكون موقفهم الإلحاديّ ناتجًا عن تخصّصهم، وكما هو الحال في شتّى المجالات الحياتيّة علميّةً كانت أو غير علميّةٍ.

ولٰكن حتّى هٰذا لا يسعف الملحدين؛ لأنّ كبراءهم ومنظّريهم ليسوا من أهل الاختصاص بأيٍّ من ذٰلك، وهٰذا أمرٌ واضحٌ ومعلومٌ، فمن زعيم الملحدين الجدد عالم البيولوجيا ريتشارد دوكينز (Richard Dawkins) إلى دكتور الفلسفة وعلم الأعصاب المعرفيّ سام هريس (Benjamin "Sam" Harris)[1]، والصحفي كريستوفر هيتشنز (Christopher

1 – https://en.wikipedia.org/wiki/Sam_Harris سوف تجد – أخي القارئ – كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة هريس ونشاطاته ومؤهّلاته.

(Eric Hitchens)[1]، والمتخصّص في الفيزياء الكونيّة لورانس كرواس (MaxwellKrauss Lawrence)[2]، ومثله نيل ديغريس تايسون (deGrasse Tyson Neil)[3]. وكذا جيري كوين (Coyne Allen Jerry)[4] المتخصص في علم الأحياء، وميشال شيرمر (Shermer Michael)[5] الحائز على الدكتوراه في تاريخ العلم، والماجستير في علم النفس، وستيفن بينكر (Pinker Steven)[6] المتخصّص في علم النفس التطوّريّ والتجريبيّ وعلم الأعصاب المعرفيّ واللغة، وكذا المتخصّص في الفيزياء الكونيّة

1- https://en.wikipedia.org/wiki/Christopher_Hitchens سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة هيتشنز ونشاطاته ومؤهّلاته.

2 - https://en.wikipedia.org/wiki/Lawrence_M._Krauss سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة كراوس ونشاطاته ومؤهّلاته.

3- https://en.wikipedia.org/wiki/Neil_deGrasse_Tyson سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة تايسون ونشاطاته ومؤهّلاته.

4 - https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Shermer سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة شيرمر ونشاطاته ومؤهّلاته.

5- https://en.wikipedia.org/wiki/Jerry_Coyne سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة كوين ونشاطاته ومؤهّلاته.

6- https://en.wikipedia.org/wiki/Steven_Pinker سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة بينكر ونشاطاته ومؤهّلاته.

ستيفن هوكينغ (Hawking William Stephen)[1]، والمتخصّص في الهندسة والرياضيّات بيل ناي (Sanford "Bill" Nye William)[2] وغيرهم[3]. فهٰؤلاء جميعهم أصحاب اختصاصاتٍ في علومٍ مختلفةٍ عن علم المنطق ونظريّة المعرفة، فكيف يصحّ من جماهير الملحدين اتّباعهم والأخذ عنهم في مسألتي الدين والوجود الإلٰهيّ والحال أنّ هاتين المسألتين لا تدخلان ضمن اختصاص أيٍّ من هٰذه العلوم، لا الرياضيّات ولا البيولوجيا ولا التاريخ ولا الصحافة ولا علم الأعصاب ولا الفيزياء. ومنذ متى كان التخصّص في علمٍ يعطي الأهليّة للتصدّي بتعليم الناس وتوجيهم في اختصاصٍ آخر؟! فهل يصحّ أن يقوم عالم الفيزياء بمعالجة أمراض الناس وهو ليس متخصّصًا بالطبّ؟! فكيف يصحّ إذن أن يتصدّى عالم الأحياء أو الفيزياء أو الأعصاب أو التاريخ أو الصحفيّ ليقوم بتوجيه الناس في قضايا هي من المباحث الميتافيزيقيّة المبنيّة مباشرةً

1- https://en.wikipedia.org/wiki/Stephen_Hawking سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة هوكينغ ونشاطاته ومؤهّلاته.

2- https://en.wikipedia.org/wiki/Bill_Nye سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة ناي ونشاطاته ومؤهّلاته.

3- http://www.thebestschools.org/blog/2011/12/01/50-top-atheists-in-the-world-today يمكنك الرجوع إلى هذه الصفحة للاطّلاع على أشهر خمسين ملحدًا معاصرًا.

على علم المنطق والنظريّة المعرفيّة؟! علمًا أنّه لا يوجد ارتباطٌ لها بأيّ علمٍ من تلك العلوم الّتي تخصّص فيها كبراء الملحدين الجدد ومنظروهم! ولو أراد أحدٌ أن يشير إلى فلانٍ وفلانٍ بوصفه متخصّصًا في الميتافيزيقا ونظريّة المعرفة من كبار الملحدين الجدد على فرض وجوده، مثل دانيال دينت (Daniel Clement Dennett)[1] وميشال أونفري (Michel Onfray)[2] أو أراد أن يرجع إلى أوائل القرن العشرين ليستنجد بأعضاء حلقة فيينا وبرتراند رسل، أو أن يوغل في الرجوع التاريخيّ إلى ديفيد هيوم مثلًا؛ فإنّ ذٰلك كلّه لن يكون كافيًا على الإطلاق لتبرير اتّباع جماهير الملحدين لهم؛ لأنّه يوجد في قبال هٰؤلاء من هو متخصّصٌ في الميتافيزيقا ونظريّة المعرفة، وادّعى أنّ العقل والعقلانيّة يقودان إلى الاعتقاد بوجود إلٰهٍ، بدءًا من سقراط وأفلاطون وأرسطو وثيوفراسطوس ومرورًا بعشرات المتخصّصين بل المئات في هٰذا الحقل العلميّ من قبيل إقليدس والأسكندر الأفروديسيّ- والكنديّ والفارابيّ وابن سينا وابن

1- https://en.wikipedia.org/wiki/Daniel_Dennett سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة ونشاطات ومؤهلات دنت.

2- https://en.wikipedia.org/wiki/Michel_Onfray سوف تجد - أخي القارئ - كلّ المعلومات الموثّقة حول حياة ونشاطات ومؤهلات أونفري.

رشدٍ وابن باجة وابن الهيثم والأكوينيّ واسبينوزا ولايبنتز، وصولًا إلى العصر الراهن عند (Armstrong Malet David) و(Stephen Mumford) و(James Franklin) و(Antony Flew) و(Edward feser) و(David Oderberg) وغيرهم الكثير. وأمام هٰذا الواقع لماذا يصحّ من جماهير الملحدين أن يتّبعوا مدّعي التخصّص القائلين بالإلحاد دون أولٰئك المتخصّصين القائلين بأنّ الاعتقاد بالوجود الإلٰهيّ هو نتيجةٌ برهانيّةٌ تعلم بتطبيق علم المنطق واعتماد العقلانيّة منهجًا معرفيًّا؟!

فأيّ عقلانيّةٍ تلك الّتي تدعو إلى الرجوع إلى فاقد التخصّص؟! وأيّ عقلانيّةٍ تلك الّتي تدعو إلى انتقاء مجموعةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ من مدّعي التخصّص على حساب مجموعةٍ أخرى تضمّ أغلب المتخصّصين المخالفين والمناقضين لهم، والممتدّين على مدى خمسة وعشرين قرنًا من الزمان وحتّى الآن؟!

وإذا كان هٰذا هو حال جماهير الملحدين مع منظّريهم وكبرائهم، وكان هٰذا هو حال نفس المنظّرين والكبراء، فأين هي العقلانيّة الّتي ترفع شعارًا؟! وأيّ فرقٍ هٰذا بين اتّباع فاقد التخصّص، وبين التقليد الأعمى الّذي يعيبه الملحدون على جماهير المتديّنين؟!

وفي المقابل، فإنّ التديّن والدين الإلٰهيّ ليس مبنيًّا على التقليد

والاتّباع الأعمى، وإذا كانت بعض هٰذه الاتّجاهات الدينيّة - أو حتّى أغلبها - تقوم على هٰذا الأساس، أو كان جملةً كبيرةً من جماهير المتديّنين يركنون إلى الخرافة، فهٰذا لا يعني أنّ الدين كلّه خرافةٌ، وأنّ التديّن كلّه مبنيٌّ على الاتّباع الأعمى. فأيّ عقلانيّةٍ تلك عندما يعطى حكم البعض للكلّ، مع كلّ الاختلاف الجوهريّ والحقيقيّ القائم بين المناهج المعرفيّة لمختلف المذاهب والأديان، وأيّ عقلانيّةٍ تلك عندما تغلق عينًا وتفتح أخرى فقط؛ حتّى لا ترى ما يخالف هواك ولا يخدم قضيّتك؟!

وبالجملة فإنّ تصنيف الملحدين للمتديّنين في خانة أتباع الخرافة واللا عقلانيّة، هو نفسه تصنيفٌ لا عقلانيّ، وتأسيسٌ لكذبةٍ مفضوحةٍ تعلن عن نفسها عند من له أدنى معرفةٍ بالأسس المعرفيّة والفلسفيّة الّتي يركن إليها العديد من المؤمنين بالإلٰه وبدينه.

وإذا أراد الملحدون أن يصرّوا على وصم أصل الدين والتديّن والاعتقاد بالإلٰه المدبّر للطبيعة والإنسان بأنّه خرافةٌ، فإنّ إصرارهم هٰذا ليس إلّا سعيًا لترسيخ هٰذه الخرافة مضافًا إلى تكريسهم لخرافتهم الأخرى المتمثّلة بكونهم أهل العقل والعقلانيّة. فمع كلّ البراهين الّتي أقيمت وتقام في مقام تأسيس الاعتقاد بالإلٰه المدبّر لطبيعة الإنسان،

الّتي جميعها مبنيّةٌ على أساسٍ معرفيٍّ متقنٍ في علم المنطق وقواعد التفكير، لا يمكن الاتّكال على ممارسات السذّج والبسطاء من المتديّنين، لتكون هي الزاوية الّتي ينظر من خلالها إلى الدين والاعتقاد بالإلٰه المدبّر.

وأمّا إذا أراد الملحدون أن يستنجدوا بأولٰئك الّذين هاجموا أدلّة الوجود الإلٰهيّ، وادّعوا فسادها كما فعل ديفيد هيوم[1] وإيمانويل كانط[2]، فإن ذٰلك لن ينفعهم على الإطلاق لأنّ هٰذين الرجلين هما المولّدان الرئيسيان للخرافة والسفسطة في العصر الحديث. فأيّ خرافةٍ أعظم من ادّعاء إمكان وجود الشيء بعد عدمه من تلقائه؟! وأيّ خرافةٍ أعظم من ادّعاء إمكان أن يحدث أيّ شيءٍ بسبب أيّ شيءٍ، وألّا علاقة لخصوصيّات الأشياء في سببيّتها. فديفيد هيوم هٰذا لم يتورّع عن وصم الميتافيزيقا كلّها بأنّها سفسطةٌ، والحال أنّه هو نفسه مؤسّس السفسطة الحديثة وعميدها؛ فهو لم يرفض الميتافيزيقا فحسب، بل منع أي إمكانية لقيام العلوم التجريبيّة، رغم أنّه ادّعى أنّها علومٌ حقيقيّةٌ، والحال أنّه كيف يمكن أن تقوم للعلم قائمةٌ في ظلّ رفض العلقة

1- في كتابه (رسالةٌ في الفهم البشريّ).

2- في كتابه (نقد العقل المحض).

الضرورية بين العلّة والمعلول والمسانَخة بينهما، كما أعرب عن ذٰلك بحقٍّ الفيزيائيّ والرياضيّ الكبير هنري وبوانكاريه في كتابه (العلم والفرضيّة)[1].

أمّا إيمانويل كانط الّذي هو نفسه من المتديّنين، ولٰكن بنى اعتقاده على الإيمان لا على العقل والاستدلال، وإنّما عمد إلى إضعاف أدلّة الوجود الإلٰهيّ بداعي مواجهة الملحدين أنفسهم كما يصرح في مقدّمة كتابه، وبعد أن نقض الأدلّة في الفصل الخاصّ بذٰلك. فهو أراد أن يخرج الكلام عن الوجود الإلٰهيّ من دائرة التداول العقليّ حتّى يحفظ الإيمان من الانتهاك، ولٰكنّه أهلك الإيمان من حيث لم يحتسب، وروّج لخرافاتٍ لا يقرّها قرارٌ متابعًا لجون لوك وديفيد هيوم في رفضه لواقعيّة قانون العلّيّة وضروريّته. إنه لمن السخرية بمكانٍ أن يكون كلٌّ من جون لوك وديفيد هيوم وإيمانويل كانط من رموز العقلانيّة، والحال أنّهم واضعوا حجر الأساس للسفسطة الحديثة.

وبالجملة، أية عقلانيّة تلك في ظلّ افتقاد رموز الملحدين وفرسانهم للدراية التخصّصيّة بمعايير المعرفة، وأيّ عقلانيّةٍ تلك في ظلّ الاستنجاد والاعتماد على مؤسّسي السفسطة واللا عقلانيّة في العصر

1- في الفصل الخاصّ بـ (حساب الاحتمالات) في هٰذا الكتاب.

الحـديث؟! وأيّ عقلانيّـةٍ تلـك في مقاربـة الـدين والوجـود الإلٰهـيّ وتقييمهما في ظلّ الاقتصار على نماذج محدّدةٍ من المذاهب والأديان ومن جماهير المتديّنين، وتعميم الحكم باللا عقلانيّة والخرافة إلى كلّ اعتقادٍ بالإلٰه وكلّ دينٍ؟!

وهل تشابه المتديّنين في أنّهم جميعًا متديّنون يخوّلنا الانتقال من كون بعضهم متّبعين للخرافة إلى أنّهم جميعهم كذٰلك؟! وهل الاتّكال على التشابه الساذج في مقام الحكم يمتّ إلى العقلانيّة بصلةٍ؟ وهل يقبل الملحدون أنفسهم أن يطبّق هٰذا المعيار عليهم فنجعلهم في خانةٍ واحدةٍ مع ماوتسي.تونج وستالين وغيرهم الكثير من مرتكبي الفظائع والتخريب للمجتمع البشريّ على مرّ التاريخ؟ فنحكم عليهم جميعًا بحكمٍ واحدٍ بحجّة أنّهم جميعًا ملحدون؟!

ومع ذٰلك يبدو أنّ المسألة تحتاج إلى تفصيلٍ أكثر، على الأقلّ حتّى يريح المتعجّب حاجبيه، ويهوّن الخطب على حدقتي عينيه، وهو يقرأ قولي بأنّ جون لوك وديفيد هيوم وإيمانويل كانط من السفسطائيّين، والحال أنّه ما فتئ يستيقظ وينام على أنغام أغنية عصر الأنوار الّتي تجعلهم أبطاله وفرسانه؛ ولذٰلك دعني - أخي القارئ - أروي لك باختصارٍ واقتضابٍ قصّة السفسطة الحديثة.

قصّة السفسطة الحديثة

القصّة – وباختصارٍ شديدٍ جدًّا – تبدأ من القرن السابع عشر أي منذ أكثر من ثلاثمئة سنةٍ، من عند جون لوك وديفيد هيوم، اللذين أعلنا اعتماد الاتّجاه التجريبيّ الحسّيّ في المعرفة؛ في قبال كلٍّ من الاتّجاه العقليّ الساذج على الطريقة الديكارتيّة، والاتّجاه العقليّ البرهانيّ الممتدّ من عند أرسطو مرورًا بالفلاسفة الإسكندرانيّين والسريانيّين والمسلمين في المشرق والمغرب، وصولًا إلى بعض السكولائيّين المسيحيّين في الغرب، وعلى رأسهم غاليليو غاليلي[1]، وهٰذا الاتّجاه الأخير كان محطّ

1- قد يبدو إقحام اسم غاليليو في معرض الكلام عن اتّباع المنهج العقليّ البرهانيّ أمرًا في غاية الغرابة، ولٰكنّ الحقيقة هي ما ذكرته؛ لأنّ غاليليو الّذي لم يخبرونا عنه إلّا أنّه عارض الكنيسة في مسألة دوران الأرض، وأرادوا لنا أن ننظر إليه مؤسّسًا يذكر مع لوك ونيوتن وهيوم وغيرهم هو في الحقيقة على الطرف النقيض منهم في جنبة المعرفيّة والمنهجيّة والفلسفيّة؛ إذ إنّه في الحقيقة متخصّصٌ في المنطق العقليّ البرهانيّ، وملتزمٌ باعتبار الميتافيزيقا علمًا حقيقيًّا، ويعدّ الأوّليّات العقليّة مطلقة الصدق بنحوٍ موضوعيٍّ، ويملك مجموعةً من التحليلات الّتي تكشف عن عمقٍ ونضجٍ كبيرين في فهم هٰذا المنهج والميتافيزيقا وفلسفة الطبيعة. ومرجعي في ادّعاء ذٰلك هو كتابه الّذي ألّفه حول البرهان، والمسمّى (مقالةٌ في البرهان)، وبحثه الآخر حول الأوّليّات العقليّة. وقد بقي هٰذان البحثان في طيّ النسيان منذ أكثر من أربعة قرونٍ لم يترجما من اللاتينية إلى الإنجليزيّة إلّا في أواخر القرن الماضي بعد عملٍ مضنٍ وشاقٍّ ورحلةٍ طويلةٍ من المعاناة بحسب ما يخبر به المترجم والمحقّق لهٰذين البحثين William A. Wallace الّذي نشرهما في كتابٍ واحدٍ ضمن سلسلة Boston Studies in the Philosophy and History of Science

معارضةٍ من قبل الاتّجاهين السابقين معًا، بل - وليكن هٰذا بالحسبان - كان أيضًا محطّ معارضةٍ من قبل الاتّجاهات السلفيّة والصوفيّة والكلاميّة - غالبًا - في المذاهب الدينيّة كلّها.

وبالجملة فإنّ جون لوك[1] قد أبرز موقفه من خلال إعلانه لأمرين: الأوّل، رفض وجود أيّ نوعٍ من الأحكام العقليّة المستقلّة عن التجربة والحسّ، بل ليس هناك من ساقيةٍ للمعرفة البشريّة الواقعيّة إلّا الحسّ والتجربة، دون أن يكون لدى الإنسان أيّ نوعٍ من القضايا القبليّة المستقلة في قيمتها وحدودها عنهما. والثاني: اعتبار كلّ المفاهيم العقليّة حول الهويّة والجوهر والماهيّة والعرض والعرضيّ والذات والقوام والذاتيّ والقوّة والفعل والإمكان والضرورة والامتناع والأنواع والأجناس والأصناف، وما شاكل ذٰلك، مجرّد اختراعاتٍ ذهنيّةٍ غامضةٍ لا تنمّ عن أيّ واقعيّةٍ حقيقيّةٍ، وبالتالي لا يمكن تطبيق أحكامها وما يرتبط بها على الواقع الخارجيّ. وقد صرّح لوك أنّه كتب كتابه الّذي عرض فيه

المجلد 138 والصادرة عن دار النشر المشهورة Springer سنة 1992. وهو في طريقه إلى الخروج باللغة العربيّة مع تعليقاتٍ منّي قريبًا بتوفيقٍ من الله تعالى. وسيكون ذٰلك مبادرةً في سبيل العمل على كشف التاريخ المزيّف الّذي جعلونا نعتقد أنّه حقيقةٌ مفروغٌ عنها كما أشرت في كتابي (الفلسفة.. تأسيسها تلويثها تحريفها).

1 – An Essay Concerning Human Understanding

هٰذه الأمور على خلفيّة الجدالات الحادّة مع السكولائيين الّذين اعتبروا أنفسهم امتدادًا للفلاسفة المسلمين والسريانيّين والإسكندرانيّين وصولًا إلى اليونانيّين بدءًا من أرسطوطاليس. وبالتالي هو قام بالتشكيك والرفض لكلّ مبادئ المعرفة، وقوّض أسس المنهج التجريبيّ الّذي ادّعى أنّه يتبنّاه؛ وذٰلك فقط في سبيل سلب (أيّ قيمةٍ علميّةٍ) الميتافيزيقا والبحث الفلسفيّ عن الوجود الإلٰهيّ.

أمّا ديفيد هيوم فقد تابع جون لوك في تجريبيّته، وألّف كتابه حول الذهن البشريّ الّذي صرّح فيه بأنّه يكمل مهمّة جون لوك، حيث قام بطرح تساؤله المشهور حول قانوني العلّيّة والسنخيّة، أو ما يسمّى بقانون العلّة الكافية، قائلًا إنّنا لا نملك أيّ مبرّرٍ حقيقيٍّ وعقليٍّ لاعتبار أنّ هناك علّيّةً ضروريّةً بين الأشياء، بل لو خلّينا وعقلنا لقلنا بأنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يصدر عن أيّ شيءٍ، وبأنّ أيّ شيءٍ يمكن أن يوجد بعد عدمه دون الحاجة إلى شيءٍ يوجده، ولٰكنّنا إذ اعتدنا على أن نرى أشياء محدّدةً تحدث عقيب أشياء أخرى محدّدةٍ، وإذ تعوّدنا أن نرى ما ليس موجودًا لا يوجد إلّا بعد أن يحدث شيءٌ آخر غيره؛ فإنّنا لأجل هٰذه العادة قمنا بصياغة قوانين تعسّفيّةٍ لا يملك العقل الحقّ بصياغتها، بل وصبغنا هٰذه القوانين بصبغة الضرورة والصدق المطلق؛ ولذٰلك دعا

ديفيد هيوم في آخر كتابه نتيجةً لمنهجه التجريبيّ إلى رمي كلّ الكتب من غير الرياضيات والعلوم التجريبيّة في النار. ولم يتفطّن هٰذا السفسطائيّ إلى أنّ دعوته هٰذه تشمل نفس كتابه، وإلى أنّ تعليله لمنشإ الاعتقاد بالعلّيّة هو نفسه إقرارٌ بضروريّة قانون العلّيّة، كما لم يتفطّن إلى الفرق بين التخيّل والتعقّل، فوقع في أحكامٍ وهميّةٍ بعد أن ألبسها لباس العقل زورًا[1].

وبالجملة لقد كانت حركتهما الفكريّة مستمدّةً من السعي إلى تقويض الميتافيزيقا والثيولوجيا؛ إلّا أنّ موقفهما من طبيعة المعرفة قد جعل العلوم التجريبيّة والرياضيّة والهندسيّة نفسها في دائرة الخطر المعرفيّ؛ إذ إنّ لوازم كلماتهما تقود إلى القضاء على إمكانيّة المعرفة البشريّة ككلٍّ، وإلى الاتّجاه نحو النسبيّة الّتي اشتهرت وذاع صيتها في القرن الأخير، أو نحو المثاليّة المفرطة الّتي انتعشت مع باركلي؛ ولذٰلك انبرى فيما بعد إيمانويل كانط لمحاولة إعطاء العلوم التجريبيّة والرياضيّة التبرير النظريّ ليقيننا بها، وإخراج موضوع الوجود الإلٰهيّ من دائرة التداول العقليّ إلى الإيمان المحض، مع الحفاظ على الغرض الّذي

1- يمكن للقارئ الرجوع إلى كتاب (نهج العقل) ليتعرّف أكثر على حقيقة أقوال هيوم وتناقضها، كما يمكنه الرجوع إلى كتاب (الفلسفة.. تأسيسها تلويثها تحريفها) ليتعرّف على القصّة الكاملة.

شكّل الأساس لانطلاقة لوك وهيوم وهو إخراج الميتافيزيقا من دائرة العلم الحقيقيّ؛ ولذٰلك قام بتأليف كتابه (نقد العقل المحض) في محاولةٍ لإيجاد المسوّغ النظريّ لليقين في الرياضيّات والفيزياء وتبنّي انعدام المسوّغ لليقين المعرفيّ بأيّ قضيّةٍ خارجةٍ عن حرمهما، من خلال اعتبار العقل مالكًا للمعرفة القبليّة التابعة لطبيعته الخاصّة غير القابلة للتعميم إلى خارج حدود الحسّ والتجربة، وبذٰلك اعتبر نفسه سائرًا على خطى لوك وهيوم ومتفاديًا لإفراطهما، مع الحفاظ على إلغاء جواز مرور الميتافيزيقا إلى ساح العلم وعلى اعتبار الدين بنسخته السائدة معلمًا للّا عقلانيّة.

إلّا أنّ محاولة كانط لم تكن لتحلّ المشكلة بنظر التجريبيّين أنفسهم؛ ولذٰلك فإنّ الاتّجاه التجريبيّ قد كان على موعد استفاقةٍ جديدةٍ في القرن العشرين على يدي أعضاء حلقة فيينا؛ ليعلنوا أنّ كلّ القضايا الّتي لا تقبل الفحص والاختبار بالحسّ والتجربة هي قضايا فاقدةٌ للمعنى وفارغة المضمون، وبالتالي فإنّ الميتافيزيقا والأخلاق والثيولوجيا ليست علومًا زائفةً فحسب، بل كلامٌ فاقدٌ لأيّ معنى. وهٰكذا استمرّت النظرة الّتي أسّسها لوك وهيوم، وفي المقابل انتعشت النسبيّة الّتي صارت ترى العلوم التجريبيّة كما الميتافيزيقا كلاهما فاقدٌ للأرضيّة المعرفيّة المتماسكة، فتعرّض الاتّجاه التجريبيّ للنقض

الشديد، بعد أن بنى نقضه للميتافيزيقا ورفضه لقيمتها على قضيّةٍ هي نفسها ميتافيزيقيّةٌ لا تجريبيّةٌ ولا رياضيّةٌ، وهي نفس الادّعاء بحصر المعرفة بحدود التجربة والحسّ.

وهٰكذا وإلى الآن، ونحن على أعتاب العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين، لا زالت المشكلة هي نفسها ولا زال الصراع هو نفسه دون أيّ حسمٍ من قبل من هم في دائرة السعي للمحافظة على موضوعيّة العلوم التجريبيّة الرياضيّة من جهةٍ، والإلغاء للميتافيزيقا وللثيولوجيا من جهةٍ أخرى. ومرجع هٰذه الاستمراريّة لهٰذا الجدل المعرفيّ هو أنّ هٰؤلاء قد انطلقوا وساروا وعينهم على إقصاء الأديان من المجتمع البشريّ، وعندما دخلوا في محاججتها قادهم الجدل إلى أنّ البداية يجب أن تكون من معايير المعرفة، فرفضوا المعايير الّتي تسوّغ قيامة الدين والميتافيزيقا الداعمة له بوجهٍ ما، فأدّى ذٰلك إلى زعزعة البديل الّذي أرادوا تأسيس مرجعيّته وهو العلوم التجريبيّة، فصاروا بين أمرين كلٌّ منهما أمرّ من الآخر، بين التخلّي عن العلوم التجريبيّة بوصفها مصدرًا علميًّا يملك جواز المرور إلى المعرفة الراسخة اليقينيّة، وبين التخلّي عن رفض الميتافيزيقا، وبالتالي إعطاء المبرّر لاستمراريّة الأديان في المجتمع البشريّ؛ لأن عين المبادئ الّتي تعطي العلوم التجريبيّة الموضوعيّة واليقين هي نفسها ومن نفس الجهة تعطي

الميتافيزيقا – وبالأخصّ الوجود الإلٰهيّ – الموضوعيّة واليقين، وهدم مبادئ أحدهما هدمٌ للأخرى[1].

فبين متابعة الرغبة والطموح بإقصاء الدين عن الحياة البشريّة، وبين متابعة الرغبة والطموح بجعل العلوم التجريبيّة البديل والمرجع الأوّل والأخير، كانت النتيجة هي البقاء في حلقةٍ معرفيّةٍ مفرغةٍ؛ هربًا من التناقض الّذي يأبى أن يغادر هٰذا المسلك الّذي تعهّد هٰؤلاء بسلوكه والاعتصام به.

ولٰكنّ المسألة لم تقف عن هٰذا الحدّ؛ فتابع لترى البقيّة!

1- أعني بذٰلك أوّليّات العقل العامّة، وما يسمّى بالقضايا الأوّليّة العامّة، وهي الّتي تحكم كلّ عمليّات الإدراك والواقع بلا استثناءٍ. والتصديق بها ينشأ عن نفس تصوّر أطرافها؛ ولذٰلك كانت مستغنيةً بالذات عن الدليل؛ لأنّ كلّ دليلٍ يتوقّف على استعمالها، ولأنّ الدليل يتوخّى إعطاء ما هو مفروغٌ عن وجوده عندها. وأهمّها قانون الهويّة وقانون امتناع التناقض وقانون الانقسام إلى ما بالعرض وما بالذات وقانون العلّيّة وقانون السنخيّة وغيرها، ولولا هٰذه القضايا لما كان هناك من معنى لادّعاء وجود معرفةٍ حسّيّةٍ بسيطةٍ – فضلًا عن ادّعاء وجود المعرفة الحسّيّة التجريبيّة – ولا كان هناك مجالٌ لإقامة أيّ دليلٍ على أيّ شيءٍ، فهي بالنسبة إلى الأفكار والأحكام والعلوم والوجود الواقعيّ للأشياء بمثابة نسبة اللسان والشفاه والحنجرة إلى الكلام، والعينين والنور إلى الرؤية والهواء والأذن إلى السماع، فكما كان: لا كلام بلا حركة اللسان وسائر الأعضاء، ولا رؤية بلا ضوءٍ وعينين، ولا سمع بلا هواءٍ وأذنين، كذٰلك لا واقع ولا علم ولا حقيقة بلا هٰذه القوانين والمبادئ الأوّليّة، ولذٰلك كان منكرها لا يفقه ما يقول، أو أنّه مشاغبٌ وسفسطائيٌّ مدفوعٌ بالرغبة والانفعال لتحقيق مآرب غير نزيهةٍ.

استغلال العلم

بعد أنّ تمّ إقصاء الميتافيزيقا عن ساح العلم، وبالتالي تمّ سلب الدين أيّ أساسٍ معرفيٍّ يقينيٍّ يمكن أن يقوم عليه، كان الملحدون رغم ذٰلك بحاجةٍ إلى الغطاء العلميّ لإضفاء المشروعيّة العلميّة على الإلحاد، وليس فقط مجرّد الاتّكال على إخراج الميتافيزيقا من ساح العلم. وقصص ماركس وأنغلز وهكسلي مع داروين أشهر من أن تحتاج إلى إعادة سردٍ، وكذا محاولات ستيفن هوكينز.

وبعد أن تمّ اعتبار البراهين على وجود إلٰهٍ مدبّرٍ للطبيعة والإنسان، مجرّد ثرثرةٍ فارغة المعنى، شرع الملحدون المتخصّصون في العلوم الطبيعيّة لتصوير النظريّات العلميّة مع تضمينها ما يعين على استخلاص الموقف الإلحاديّ، وهي أنّ العالم قد وجد وتكامل من تلقائه وبنفسه وبنحوٍ أعمى خالٍ من أيّ غايةٍ ومستقلٍّ عن أيّ تدبيرٍ.

فكانت نظريّاتٌ كنظريّة الانفجار العظيم، ومن قبلها نظريّة التطوّر بالانتخاب الطبيعيّ الّتي أسّسها داروين وأعيد أحياؤها في منتصف القرن الماضي، وتمسّك بها زعيم الملحدين ريتشارد دوكينز لإظهار كيف أنّ الكائنات الحيّة توجد وتتطوّر بنحوٍ أعمى دون الحاجة إلى فرض

وجود إلٰهٍ مدبّرٍ ومنظّمٍ[1]. وبالتالي بدا وكأنّ الملحدين يمتلكون المبرّر العلميّ لموقفهم تحت شعار: أنّ فرضيّة وجود إلٰهٍ وراء العالم ليس فرضيّةً وحيدةً، بل إنّ العلوم الطبيعيّة أعطتنا فرضيّاتٍ أخرى تقتضيها النظريّات العلميّة.

لم يفهم الملحدون أنّ قضيّة وجود إلٰهٍ مدبّرٍ لعالم الطبيعة والإنسان هي نتيجة براهين يقينيّةٍ، وليست مجرّد فرضيّاتٍ[2] حتّى يكون البحث

1- راجع كتاب دوكينز (صانع الساعات الأعمى) أو كتابه (وهم الإلٰه)، وكذٰلك كتب الفرسان الثلاثة الآخرين، أو كتاب لورانس استراوس (كونٌ من لا شيء)، أو كتاب ستيفن هوكينغ (التصميم العظيم).

2- فالقول بالوجود الإلٰهيّ نتيجةٌ مباشرةٌ للمبادئ العقليّة الأوّليّة البيّنة لكلّ عقلٍ متى فهم مفردات ألفاظها، والمتعلّقة بمطلق الوجود والتحقق، بدءًا من قانون الهويّة وقانون الغيريّة وقانون امتناع التناقض وقانون الذاتيّة وقانون العلّيّة، كما هو حال النتائج الهندسيّة والحسابيّة الّتي تقود إليها المبادئ العقليّة الأوّليّة البيّنة والمتعلّقة بالعدد والخطوط والسطوح والأجسام. فلا يوجد أيّ فرقٍ على الإطلاق، سواءٌ من الناحية العقليّة أو المنطقيّة أو الواقعيّة، بين النتيجة القائلة إنّ (كلّ مثلّثين متساويين في ضلعين منهما وفي الزاوية الحادثة بين هٰذين الضلعين، فإنّ الخطّ الثالث في كلّ منهما مساوٍ للآخر، وكلّ واحدةٍ من الزاويتين الحادثتين عند ذٰلك الخطّ في أحد المثلّثين مساويةٌ لنظيرتها في المثلّث الآخر)، وبين النتيجة القائلة إنّ (وجود العالم مستندٌ إلى فعل ذاتٍ واجبة الوجود بذاتها مستغنيةٍ بنفسها، وإنّ العالم بحسب ذاته ممتنعٌ أن يكون وجوده من ذاته؛ لأنّه مركّبٌ ومؤلّفٌ ومتحرّكٌ). نعم الفرق الوحيد هو أنّ القضايا الرياضيّة خاليةٌ من الموانع التكوينيّة للإقرار والقبول بها، بخلاف القضايا الفلسفيّة؛ فإنّ

عن بديلٍ عنها ممكنًا، وحتّى يصير ذٰلك البديل مشروعًا ومستساغًا وراجحًا بنظر المعايير العلميّة؛ ولذٰلك أرادوا أن يقوّضوا أسس تلك البراهين تقويضًا علميًّا تدعمه العلوم التجريبيّة، فعمدوا إلى استغلال البحوث الفيزيائيّة في فيزياء الكمّ ليروّجوا لخرافةٍ أخرى، وهي أنّ النظريّة العلميّة في فيزياء الكمّ واعتمادًا على التجارب العلميّة قد صرّحت بأنّ القوانين العقليّة كالعلّيّة وامتناع التناقض وغيرها ليست قضايا صادقةً وصحيحةً في العالم الكموميّ، وبما أنّ العالم الكموميّ هو عالم البنية الأوّليّة للكون، فإنّ النتيجة الّتي روّجوا أنّها تستخلص من النظريّة العلميّة هي أنّ أيّ كلامٍ عن بداية العالم استنادًا إلى قواعد التناقض والعلّيّة وغيرها سيكون استنادًا إلى قواعد لا يخضع لها الكون في البنية الأوّليّة الّتي منها نشأ وتكامل.

وبذٰلك استطاع الملحدون أن يتظاهروا بجعل العلوم التجريبيّة وسيلةً لتحقيق أمرين، الأوّل هو إيجاد تفسيرٍ لأصل الكون وكيفيّة

الاعتقاد بها يصطدم بوجود موانع تكوينيّةٍ مثل أحوال الانفعال وأحوال الخيال اللذين ينتجان أحكامًا وهميّةً تمنع العاقل من الجري وراء مقتضى عقله، وتقعده ضحيّة تأثير انفعاله وخياله. وهٰذا أمرٌ ليس محلّ تفصيله واستقصائه هنا، بل سيطّلع القارئ الموقّر عليه في فرصةٍ أخرى قريبةٍ بنحوٍ مفصّلٍ ومستقصًى ومستوفٍ بتوفيقٍ من ربّ العلا.

تكامله بديلًا عن الاعتقاد بإلٰهٍ موجدٍ ومدبّرٍ له؛ لأنّه تفسيرٌ مرجوحٌ علميًّا، والثاني، إيجاد المبرّر العلميّ لرفض البراهين على الوجود الإلٰهيّ من خلال إفساد مبادئها بنظر العلم التجريبيّ، بعد أن سبق وأن تمّ إفسادها بنظر الفلسفة عند لوك وهيوم وكانط.

وبذٰلك استطاع الملحد أن يؤمّن الغطاء لموقفه تحت شعار الفلسفة والعلم التجريبيّ معًا، بعد أن حرف الفلسفة واستغلّ النظريّات العلميّة؛ ليعطي لنفسه طابعًا عقلانيًّا علميًّا له وقعه المهيب في نفوس السذّج والضعفاء.

إلّا أنّه ورغم كلّ ذٰلك فإنّ جميع محاولاتهم لاستغلال العلم كانت فاشلةً وواضحة الزيف؛ لأنّ المبادئ العقليّة الّتي تقوم على أساسها البراهين على وجود إلٰهٍ مدبّرٍ للكون والإنسان، هي عينها المبادئ الّتي تقوم على أساسها عمليّة الإحساس والتجربة الحسّيّة، فكيف يمكن أن يصحّ ادّعاؤهم بأنّ العلوم التجريبيّة تقود إلى بطلان المبادئ العقليّة الأوّليّة أو تسلبها ضرورة الصدق[1]؟ فهل هٰذا إلّا قولٌ

1- إنّ كلّ عمليّة حكمٍ يقوم بها الإنسان - سواءٌ كان حكمًا بضرورة شيءٍ أو إمكان شيءٍ أو امتناع شيءٍ، وسواءٌ كان حكمًا حسّيًّا بسيطًا أو تجريبيًّا أو عقليًّا رياضيًّا أو فلسفيًّا - تعتمد بالضرورة على مجموعةٍ من القواعد الحاكمة والمنبسطة، دون أيّ إمكانيّةٍ للانفكاك عنها، وهي: قاعدة

بأنّ العلوم التجريبيّة قادت إلى بطلان نفسها، وأنّها ليست علومًا؟! وكيف يمكن التنظير لبديلٍ عن قضيّة وجود إلٰهٍ مدبّرٍ للكون والإنسان، والحال أنّ هٰذه القضيّة نتيجة براهين، فهل يصحّ إيجاد بدائل لنتائج

الهويّة أي أنّ كلّ شيءٍ هو ذاته بما له من خصوصيّاتٍ، وتغيّر أيّ خصوصيّةٍ صيرورةٌ لذاتٍ أخرى؛ وقاعدة **الغيريّة** وهي أنّ كلّ ذاتٍ هي غير الأخرى بما بين خصائصها من مغايرةٍ، ولا وسط بين الذات وغيرها؛ وقاعدة **عدم التناقض** أي أنّ الإيجاب والسلب لا يجتمعان على موضوعٍ واحدٍ من جهةٍ واحدةٍ؛ وقاعدة **الذاتيّة** أي أنّ كلّ ما يتّصف به الموضوع بذاته فهو ضروري له ما دام هو نفسه، وكلّ ما لا يتصف به الموضوع لذاته فهو له بالضرورة ما دام هو نفسه؛ وقاعدة **العلّيّة** كلّ وصفٍ يوجدُ لموضوعٍ ولا يكون له بذاته فهو له بانضمام غيره إليه، وهذا الغير سبب من أسباب الوصف وعلّة اتصاف الموضوع به. وبدون هٰذه القواعد يمتنع أن يقوم امرؤٌ بأيّ حكمٍ، حتّى الحكم بأنّه شاكٌّ، بل حتّى اتّخاذ الموقف بأنّه لا يريد أن يحكم. ومرجع هٰذه الهيمنة لهٰذه القواعد هو أنّها قواعد الوجود والتحقّق، وكلّ ما تتكلّم عنه فإنّك تتكلّم عنه كونك متحقّقًا وموجودًا، وحال هٰذه القواعد حال اليد وأصابعها؛ إذ إنّها لا يمكن أن تمسك نفسها، وإنّما تمسك بها الأشياء الّتي هي غيرها، وكلّ إمساكٍ بغيرها يتمّ عبر استعمالها. ولٰكن مع ذٰلك فهٰذا لا يقتضي أن يكون هناك التفاتٌ فعليٌّ إليها، بل كثيرًا ما نفعل ونمارس الأشياء دون أن نكون ملتفتين بالفعل إليها، مثل كونك غير ملتفتٍ الآن بالفعل إلى أنّك تفتح عينيك، رغم أنّك تفتحهما حقيقةً، وتنظر من خلالهما إلى كلامي الّذي تقرأه، وأنت تحرّك لسانك عندما تتكلّم دون أن تلتفت بالفعل إلى حركة لسانك، وهٰكذا أوّليّات العقل نستعملها منذ أوّل وجودنا، وهي حاكمةٌ على وجودنا ووجود كلّ الأشياء بنحوٍ بيّنٍ بنفسه وظاهرٍ، ولٰكن دون أن نلتفت بالفعل إليها وإلى أنّنا نستعملها، إلّا حينما نتعمد ذٰلك أو ينبّهنا غيرنا عليه، كما نبّهتك على أنّك تحرّك لسانك وتفتح عينيك وأنت تتكلّم أو تنظر، وقبلت ذٰلك بكلّ بساطةٍ؛ لأنّه بيّنٌ بنفسه متى التفتّ إليه، وهٰذا هو حال أوّليّات العقل.

البراهين إلّا عند من لا يفقه حقيقة هٰذه البراهين؟! لقد حقّ قول القائل إنّ طالب الحاجة أعمى لا يرى إلّا قضاها، فإنّ جملةً من الملحدين قد أصابهم العمى حتّى عن أوضح الواضحات؛ بسبب سعيهم المحموم لتبرير موقفهم والقضاء على الدين؛ فألبسوا الخرافة لباس العلم، فكانت خرافاتهم أعظم جنايةٍ من أيّ خرافةٍ، إلّا أنّ الإعجاب يمنع من الازدياد.

ومضافًا إلى ذٰلك كلّه، فإنّ استغلال العلم من قبل الملحدين لم يقتصر على هٰذا الحدّ، بل وبعد أن وجدوا أنّ المجتمعات البشريّة تحتاج إلى القادة الّذين يرتبطون مع الجماهير ويقتربون من نفوسهم، بدأ العمل على إيجاد بديلٍ عن الرموز والقادة الدينيّين، بحيث يكون فعّالًا وناجحًا، وذٰلك من خلال الزجّ بالملحدين المتخصّصين في العلوم التجريبيّة، والمالكين للمهارة الخطابيّة والجاذبية النفسيّة؛ ليقوموا بدور القادة والمرجعيّات العلمية لعامّة الناس، فعمدوا إلى تقديم العلم التجريبيّ مصدرًا وحيدًا للمعرفة الموثوقة، مستعملين أكثر الوسائل الإعلاميّة تطوّرًا وتأثيرًا على عموم الناس، وذٰلك من خلال الأفلام الوثائقيّة والسينمائيّة، والبرامج والمسلسلات التلفازيّة، والكتب المبسّطة والروايات والقصص.

وبالجملـة لقـد تمّ إخـراج العلـم مـن الكتـب التخصّصـيّة الجافّـة والصـعبة، وتقديمـه بأسـاليب يفهمها عمـوم النـاس؛ لتـربّي في نفوسـهم عظمة العلم التجريبيّ وتفاهة كلّ ما عداه. كما تمّ إخراج العديد من العلمـاء مـن المختبـرات والصـوامع العلميّة لجعلهم قـريبين مـن عقـول الناس ونفوسهم؛ بداعي إيجاد العلقة الروحيّة والنفسـيّة معهم؛ ليكونـوا بذٰلك ملاذًا وحيدًا وبديلًا يلجأ إليه جماهيرالملحدين، ويطمئنّون لـه ويرتبطون معه بعواطفهم ومشاعرهم. وقد وصلت مراحـل العمل على ذٰلـك إلى إقامة المهرجانـات السـنويّة حـول العلـوم التجريبيّة؛ لتعرض فيها آخر الإنجازات العلميّة بأساليب قريبةٍ إلى نفـوس النـاس، تتضمّن العروض الغنائيّة وأساليب المرح المتنوّعة؛ لتجـذب الأطفـال والشـباب، وليتمّ في نهايـة المهرجـان جمع المشـاركين تحت منصّـة الختام؛ ليشـاهدوا ويستمعوا ويحاوروا ويسألوا مجموعةً من رموز الملحدين المتخصّصـين في شتّى العلوم، والّذين أصبحوا نجومًا بنظر جماهيرالناس لهـم المحلّ الأرفع في نفوسهم.

بيـد أنّ اسـتغلال العلـم مـن قبـل الملحـدين لم يكـن مقتصـرًا عـلى ترويج موقفهم ودعم رؤيتهم حـول الكـون والإنسـان بشـكلٍ مباشرٍ؛ لأنّ ذٰلك لم يكن كافيًا لخدمـة قضـيّتهم ومشروعهم، بـل لا بـدّ مـن إسـقاط

البديل؛ ولذٰلك عمدوا إلى استغلال العلم التجريبيّ لتشويه الدين، واعتباره ظاهرةً بشريّةً ولدتها السذاجة الفكريّة والأوهام النفسيّة على مرّ القرون، فصار علم الإنسان[1] ميدانًا لاختراع النظريّات التفسيريّة للآثار المكتشفة حول المجتمعات البشريّة، وتوظيفها في خدمة القضيّة الإلحادية، وصار علما النفس والاجتماع وسيلةً فعّالةً للتنظير الخادم للقضية الإلحاديّة. ومن الطبيعيّ جدًّا أن يقوم الملحد بتفسير الظاهرة الدينيّة في المجتمعات البشريّة تفسيرًا مادّيًّا، وإعمام هٰذا التفسير على كلّ الأديان والمتديّنين، فيقوم بتفسير السلوك الدينيّ في خطٍّ تطوّريٍّ بدءًا من السحر، مرورًا بعبادة الطبيعة، وصولًا إلى عبادة الآلهة المتعدّدة، وانتهاءً بعبادة الإلٰه الواحد، حتّى أصبح البشر في مرحلةٍ من الوعي التامّ للتخلّي عن السلوك الدينيّ الّذي لم يكن إلّا مظهرًا من مظاهر الضعف والخوف والرغبة الجامحة؛ ليستبدل به اتّباع العلم التجريبيّ الّذي يمثّل أرقى مراحل الوعي البشريّ. وهٰكذا تمّ تقديم الإلحاد، فزعموا بأنّه يمثّل الحالة البشريّة الطبيعيّة في قبال الحالة الدينيّة الناتجة عن الخضوع لتأثير المخاوف والآمال الّتي تغذّيها

1- Anthropology

السذاجة الفكريّة والاستغلال السياسيّ للسيطرة على الناس والتحكّم بهم بما يخدم أطماع المتسلّطين على الرقاب.

وهٰكذا مارس الملحدون دورهم في علوم الإنسان والاجتماع والنفس، فاخترعوا الفرضيّات المؤيّدة لرؤاهم، وعزّزوها بنماذج بشريّةٍ أثريّةٍ ومعاصرةٍ؛ ليوهموا أنّ نظريّاتهم حول حقيقة الدين ناشئةٌ عن الواقع، مستعملين أردأ أنواع الاستدلال وأحطّه قيمةً معرفيّةً، وهما التمثيل والاستقراء الناقص تحت مسمّى التجربة والبحث العلميّ! فهل إذا صلحت فرضيّةٌ ما كي تكون تفسيرًا لنماذج محدّدةٍ من السلوك، فإنّ ذٰلك يعني أنّ كلّ أنماط السلوك محصورةٌ بهٰذه الفرضيّة؟! وهل انطباق تفسيرٍ ما للظاهرة الدينيّة على مكتشفاتٍ هنا أو هناك، وممارساتٍ هنا أو هناك يعني أنّ كلّ دينٍ وكلّ تديّنٍ هو تطبيقٌ لهٰذا التفسير؟! وهل استغلال السلطة السياسيّة للأفكار الدينيّة في موطنٍ ما يعني أنّ كلّ الأفكار الدينيّة هي نتيجة استغلالٍ سياسيٍّ؟! وهل تأثير الحالة الاقتصاديّة والاجتماعيّة على الطقوس العباديّة والأفكار الدينيّة يعني أنّ كلّ الممارسات العباديّة والأفكار الدينيّة نتاجٌ للحالة الاقتصادية والاجتماعية؟! أليس هٰذا إعمامًا ساذجًا واستغلالًا شنيعًا للموقع العلميّ لخدمة الآمال والطموحات بتدمير الدين وإخراجه من

الحياة البشريّة؟! فأيّ عقلانيّةٍ هٰذه الّتي تخوّل صاحبها اعتماد التمثيل والاستقراء الناقص والإعمامات الاعتباطيّة سبيلًا لتكوين النظريّة والرؤية حول الدين؟! وأيّ عقلانيّةٍ تلك الّتي تحدو بصاحبها إلى تلقّف الفرضيّات الموافقة لمسلّماته وآماله ورغباته والاستماتة في إيجاد المؤيّدات الداعمة لها؟! أليس هٰذا وقوعًا في عين ما اتّهموا المتديّنين به من أنّهم نسجوا عقائدهم على وفق أحوالهم النفسيّة والاجتماعيّة ورغباتهم وآمالهم؟! أليس خوف الملحدين من السيطرة السياسيّة للمتديّنين والنفور النفسيّ من سلوك بعضهم، والرغبة الشديدة بالتخلّص من أفكارهم، هو المسؤول عن صناعة الفرضيّات وتلقّفها بالنحو الموافق والمرضي لكلّ ذٰلك، ثمّ تقديمها باسم العلم التجريبيّ والحقيقيّ؟ أليس هٰذا تزييفًا وتدليسًا شنيعًا؟! فكيف يكون التفسير الإلحاديّ للظاهرة الدينيّة تفسيرًا علميًّا والحال أنّه مبنيٌّ على ارتكاب عين ما شنّع الملحدون به على المتديّنين؟!

ورغم كلّ ذٰلك فلا زال هناك ما يمكن للملحدين عمله لتشديد الخناق على المتديّنين، وهو أن يفرغوا الدين من معناه، فلاحظ كيف حدث ذٰلك!

استغلال الأخلاق والقانون

لقد أراد الملحدون أن يحكموا الطوق على الدين والمتديّنين وكلّ اعتقادٍ بتدبيرٍ وتشريعٍ إلٰهيّ؛ فبعد أن زيّفوا العقلانيّة واستغلّوا العلوم التجريبيّة أبشع استغلالٍ، بقي أمامهم أن يفرغوا الدين والتديّن من أيّ قيمةٍ إنسانيّةٍ، فبعد بناء الجدار بين الدين والعقل، وبين الدين والعلم، بقيت الرؤية السلوكيّة المؤمِّنة لخير الإنسان وسعادته، فإذا ما نجح الملحدون في إقامة الجدار بين الدين والسعادة البشريّة، فعند ذٰلك سيتحوّل الدين إلى شرٍّ مطلقٍ في أعين جماهير الناس، وسيلغو وجوده فيعمد الناس تلقائيًّا إلى إلغائه من سجلّ المستقبل البشريّ[1].

ولذٰلك راح الملحدون يقدّمون الحياة البشريّة في شقائها وتعسها بحيث تكون نتيجةً طبيعيّةً لسيطرة الرؤية السلوكيّة الدينيّة، بدعوى أنّها أوّلًا قائمةٌ على أساس التمييز المذهبيّ والطائفيّ، والتمييز الجنسيّ، فكرّست كلّ طائفةٍ أفضليّتها على غيرها، وحصرت ممارسة الخير مع من

1- وعلى هٰذا الأساس كتب ريتشارد دوكينز كتابه (وهم الإلٰه)، وكذٰلك باقي الفرسان الثلاثة وغيرهم كما هو معلومٌ للمتابع.

ينتمون إليها، وشرّعت الحرب والقتل لمخالفيها؛ وأنّها تقوم ثانيًا على أساس اللا مبالاة بالحياة الدنيويّة، واعتبار الحياة الآخرة بعد الموت الحياة الحقيقيّة، فساد الإهمال لرقيّ الإنسان على الأرض، وعانى البشر من فقدان كلّ وسائل تطوّرهم ورقيّهم؛ وأنّها ثالثًا قائمةٌ على أساس التقليد والاتّباع لرموز الدين، فساد كلٌّ من الكسل والروح الاتّكاليّة في المعرفة، فعزف البشر عن البحث العلميّ والرقيّ المعرفيّ؛ لأنّهم لا يرون خيرًا في غير المعارف الدينيّة الجاهزة؛ وأنّها رابعًا رؤيةٌ تؤخذ من كتبٍ ومرويّاتٍ تاريخيّةٍ تفتقد للموثوقيّة، وللصلاحيّة لتقنين مجتمع الإنسان في عصرٍ ارتقى فيه الوعي البشريّ، وتبدّلت الصيغ المجتمعيّة، فأضحت تلك التعاليم الموروثة فاقدةً لأهليّة التقنين لمجتمع الإنسان المعاصر، فكانت مضادّةً ومنافيةً للمعايير الخلقيّة والقانونيّة الّتي راعاها القانون الوضعيّ بما يخدم صالح الإنسان.

ثمّ يتابع الملحدون بداعي الإشارة إلى البديل المخلّص من كلّ هٰذا التعس والشقاء، فيوجّهون الأنظار نحو الأمّة الأوربّيّة عندما استطاعت التحرّر من سطوة الدين على حياتها الاجتماعيّة والعلميّة والاقتصاديّة، فصارت هٰذه الحياة تحتلّ قيمتها الحقيقيّة، وتمّ رفع الكبح عن الفضول

البشريّ للبحث والتحقيق، فانطلق البشر نحو بناء العلوم، فاكتشفوا وصنعوا وقادوا العالم انطلاقةً جديدةً وفّرت لهم كلّ وسائل السعادة والهناء؛ وأعطت للإنسان قيمته بغضّ النظر عن ملّته ودينه وجنسه، وكرّست المساواة والحرّيّة في شتّى مجالات الحياة. وشرّعت القوانين المنظّمة لحياة المجتمع الحافظة لصلاح أبنائه، فساد الوئام والتصالح بين البشر الّذين سخّروا العالم بما فيه لخدمتهم.

هٰكذا اختار الملحدون أن يخاطبوا المتديّنين ويدعوهم إلى الإلحاد، بأن يظهروا لهم أنّ شقاءهم مسبّبٌ عن تديّنهم، وأنّ سعادتهم مرهونةٌ بالتحوّل إلى النظرة المادّيّة للعالم، ونسيان العالم الآخر وتكريس الهمّ والجهد للسعادة في هٰذه الحياة، بامتلاك كلّ وسائل الراحة وتحقيق الطموحات والآمال، واكتساب الشرف والمجد بين أعضاء المجتمع الإنسانيّ، والمشاركة في رقيّه العلميّ والتقنيّ، والتمتّع بلذّة التنافس والتسابق نحو إحراز النجاح والفضل تحت مظلّة القانون الراعي لمصالح الجميع.

وأمام هٰذا التقييم للواقع البشريّ، يجد الإنسان نفسه أمام كمٍّ هائلٍ من التزييف والتزيين الفارغ، والإفراط في التعامي والتعمية عن الحقّ

والحقيقة. إذ كيف ساغ للملحد أن يكيل الدين بكلّ مذاهبه واتّجاهاته المعرفيّة بمكيالٍ واحدٍ، وكأنّهم جميعًا على نسقٍ واحدٍ فاردٍ، والحال أنّ التاريخ يعجّ بالخلافات المنهجيّة حول دور العقل والنصّ الدينيّ، ومعايير التشريع؟! وإذا كان هٰذا التقييم ينطبق على نماذج دينيّةٍ ومذهبيّةٍ هنا أو هناك، فعلى أيّ أساسٍ يسوّغ للملحد أن ينظر إلى الدين ككلٍّ من خلالهم؟! فهل يقبل الملحدون أن يقوم متديّنٌ ما بتقييم الواقع البشريّ المعاصر وتحميل الملحد مسؤوليّة الفساد والخراب الّذي خلّفته وتخلّفه الرؤى والممارسات الشيوعيّة والرأسماليّة والإمبرياليّة والاستعماريّة؟! هل يقبل بأنّ يتمّ الحكم عليه بالمسؤوليّة عن الحرب العالميّة الأولى والثانية وحرب فيتنام والحرب الباردة وسائر الحروب غير الدينيّة؟! هل يقبل بتحميله مسؤوليّة تكريس الطبقيّة الفاحشة وتمكين الأغنياء من الفقراء وتحويل أغلب أعضاء المجتمع إلى عبيدٍ تحت مسمّى الموظّفين والعمّال والجنود والطبقة الوسطى والطبقة الفقيرة؟! هل يقبل بتحميله مسؤوليّة استشراء تجارة المخدّرات والنساء والأطفال تحت الحماية السياسيّة؟! هل يرضى بتحميله نتائج الروح القوميّة والوطنيّة الّتي تكرّس للتمييز في الحقوق والواجبات، أو يرضى

بتحميله نتائج حرّيّة الإعلام المطلقة الّتي أدّت إلى ترويج الأكاذيب والخداع، أو يقبل بتحميله نتائج الصراعات الحزبيّة في المجتمع والسياسة؟! أويرضى بتحميله مسؤوليّة فشل الأنظمة القضائيّة ومؤسّسات إدارة السجون بما فيها من ظلمٍ وفسادٍ وتحيّزٍ؟! أويقبل بتحميله نتائج القوانين البيروقراطيّة وآثارها الوخيمة على إدارة المؤسّسات وتدبير أحوال الناس؟!

يمكننا القول أكثر فنسأل: هل يقبل الملحد أن يتمّ تحميله مسؤوليّة انهدام التأسيسات النظريّة للأخلاق؟ فنحمّله مسؤوليّة الرؤية العاطفيّة الانفعاليّة الّتي كرّسها ديفيد هيوم وأعضاء حلقة فينّا، ومسؤوليّة النظريّة النفعيّة الأنانيّة عند جرمي بنثام في الأخلاق، والنظريّة البرغماتيّة عند جون ديوي، أو الاشتراكيّة عند ماركس وأتباعه. حتّى بتنا في عصرٍ تسوده النسبيّة الأخلاقيّة، وبات العالم المعاصر لا يملك إلّا وثيقة حقوق الإنسان الّتي انتهكت مرّاتٍ ومرّاتٍ باسم حقوق الإنسان؟!

إنّ كلّ ما سوف يستخدمه الملحد من أساليب لتبرئة نفسه وتبرئة الرؤية المادّيّة للحياة من كلّ هٰذه الفظائع، والدفاع عن بعض الرؤى

والممارسات يمكن للمتديّن أن يستخدمه بعينه لتبرئة نفسه ودينه أو مذهبه أو طائفته من كلّ الممارسات الفاسدة والرؤى العفنة الّتي اتّهمه بها الملحد وعيّره بها.

إنّ هٰذا التقييم الّذي يحمله الملحد يختزل كلّ تاريخ البشريّة وينظر إليه من منطلق معاينته لحال المجتمع البشريّ في الحقبة الّتي سبقت ما يسمّى عصر النهضة وعصر الأنوار، وكأنّ العالم كلّه كان على شاكلة المجتمع الأوربّيّ في القرون العشرة الأولى بعد الميلاد، وكأنّ المجتمعات الدينيّة كلّها على شاكلة ما ساد خلال القرون العشرة الأخيرة في المجتمع الشرق أوسطيّ في ظلّ تسلّط المنهجيّة السلفيّة أو الصوفيّة على مقاليد العلم والسياسة. وكأنّ النهضة المادّيّة الأوربّيّة كانت مستقلّةً عن كلّ الإنجازات والحضارات الّتي سبقتها، وكأنّه لم يوجد علمٌ ولا علماء إلّا حين نهضت أوربّا نهضتها!

وبعد، فإنّ هٰذا التقييم يختزل كلّ الدين بكلّ ما فيه في ممارسات جملة من الجماهير السذّج، ويحمّل الدين مسؤوليّة فساد الممارسة البشريّة في فهمه وتطبيقه، والحال أنّ هٰذه الممارسة البشريّة هي عينها الّتي تقف وراء كلّ الفظائع البشريّة، سواءٌ كانت تحت مسمًّى دينيٍّ أو

غير دينيٍ.

أيريد الملحد أن يقيّم الدين بكلّ ما فيه انطلاقًا من معرفته الفيزيائيّة أو الأحيائيّة أو النفسيّة أو الاجتماعيّة أو الجغرافيّة؟ أيريد أن يقتصر في نظرته إلى الدين على ما يراه من الأتباع الانفعاليّين هنا وهناك؛ ليريح نفسه من عناء الغوص والبحث؟! أم يريد أن يقتصر على قراءة روايةٍ هنا وحديثٍ هناك وآيةٍ هنا وأخرى هناك؛ ليكوّن لنفسه رؤيةً عن أصل الدين وغاياته ومعاييره؛ ليريح نفسه من عناء الغوص في حقيقة الغاية من الدين الإلٰهيّ ومعايير الخطاب الحكيمة وضرورات مقام الخطاب الّتي تفرضها المحدوديّة البشريّة في الفهم والاستيعاب؟! أم يريد أن يقتصر على رؤية الخلاف والتعدّديّة الدينيّة؛ ليعتبر الأديان خزعبلاتٍ؟! دون أن يكلّف نفسه عناء البحث حول مدى ضرورة تنوّع الخطاب الدينيّ وتعدّد الشرائع، ودون أن يكلّف نفسه عناء البحث حول تأثير الطبيعة البشريّة التلقائيّة في الفكر والعمل على فهم الدين وتطبيقه، فتقود إلى التحريف والتبديل والاستغلال باسم الدين كما فعل الملحدون أنفسهم باسم العلم وباسم القانون الوضعيّ وباسم الوطن والمصلحة الوطنيّة والقوميّة حذوًا بحذوٍ.

ما بال الملحد وهو يصوّر لنا أنّ التطور التقنيّ والصناعيّ يشكّل أفضل وأجمل أنواع الرقيّ؟! ما باله وهو يتعامى عن أنّ كلّ هٰذا التطوّر يقبل بنفس المستوى أن يتمّ استخدامه لإفساد البشريّة ولإصلاحها، وأنّ الإفساد والإصلاح هما مسؤوليّة الإنسان نفسه في كيفيّة توظيف كلّ هٰذا التطوّر؟! فالإنسان الفاسد سيوظّفه لنشر فساده وإعمامه، والإنسان الصالح سيوظّفها لنشر صلاحه وإعمامه.

وبالتالي فإنّ المسؤول عن تحقيق سعادة الإنسان وخيره ليس كلّ هٰذا التطوّر، بل المسؤول عنها هو الصلاح الداخليّ للإنسان وليس كلّ تلك الاختراعات والصناعات؛ إذ لا تملك أن تهب كلّ ذٰلك للإنسان. فلو وصلنا إلى كلّ الكواكب واكتشفنا كلّ المجرّات، وسيطرنا على كلّ الطبيعة، لن يكون لذٰلك أيّ دخلٍ في سعادة الإنسان إلّا بالمقدار الّذي يقوم الإنسان نفسه لتوظيفها في تحقيقها واستعمالها بالنحو المتوافق مع الصلاح والخير. وإذا كان الدين الإلٰهيّ يهتمّ ويراعي أمرًا ما، فهو يهتمّ لأجل إيجاد ذٰلك الصلاح الداخليّ؛ حتّى يتمّ توظيف كلّ المقدّرات في سبيل تحقيق ذٰلك الصلاح وإعمامه. وإذا تحقّق الصلاح الداخليّ فكلّ ما عداه يصير مجرّد توظيفٍ له، وإذا ما فقد فكلّ ما عداه يصير لا

قيمة له. وإذا كان الإنسان قد أعمّ فساده إلى ممارسته الدينية، فذٰلك لأنّ وظيفة الدين هي التنبيه والتذكير والإنذار في سبيل معاضدة العقل البرهانيّ؛ ليشكّلا معًا اكتمال مقوّمات تحصيل السعادة الإنسانيّة، وفي ظلّ النزاع على دور العقل بين المتديّنين، وفي ظلّ تزوير وتزييف العقلانيّة سواءٌ من الملحدين أو بعض المتديّنين، فإنّ تحريف الدين وانحراف الممارسة الدينيّة لن يكون إلّا واقعًا يعيشه المجتمع الإنسانيّ.

وبعد كلّ هٰذا، فقد أعرب الملحدون في تقييمهم للواقع الإنسانيّ على هٰذه الشاكلة عن مدى زيف القناع الّذي ارتدوه؛ ليقدّموا أنفسهم ملاذًا لتحقيق السعادة الإنسانيّة وتأمين الممارسة الخلقيّة والقانونيّة الّتي ترعى صلاحه وخيره.

ختام الكلام

في ختام الكلام، وبعد ملاحظة زيف كلّ الأقنعة الّتي تخفّي الملحد خلفها، يصبح من الواضح أنّ الحالة الإلحاديّة ليست حالةً طبيعيّةً، بل هي حالةٌ مرضيّةٌ، تحتاج علاجًا ومداواةً برفقٍ وحكمةٍ؛ لأنّ من يمارس كلّ هٰذا التزييف في سبيل تحقيق مراده، ليس إلّا إنسانًا محكومًا بسيطرة الرغبة الجامحة بتحقيقه، دون أن يتوقّف هنيهةً ليفحص مدى صواب ذٰلك المراد، ودون أن يسأل نفسه عن السبب الحقيقيّ الكامن وراء رغبته وإرادته. ولو توقّف ليسأل لما وقع في الزلل.

ولٰكن مع ذٰلك، فمن الاجحاف أن يتمّ تحميل الملحد مسؤوليّة موقفه بنحوٍ كاملٍ، والحال أنّه كسائر البشر ضحيّةٌ للمنظومة السائدة والحاكمة في كلّ الجوانب الحياتيّة، أعني المنظومة المادّيّة الّتي بسطت مبادئها المعرفيّة والاعتقاديّة والسلوكيّة على مقاليد التعليم والإعلام والاقتصاد والسياسة، وكوّنت لهم أهدافًا وهميّةً نذروا أنفسهم لتحقيقها على حساب تكاملهم الحقيقيّ، دون أن تلقى في المقابل أيّ مقاومةٍ ناجعةٍ وناجحةٍ من قبل المنظومات اللاهوتيّة الشائعة، بل كثيرًا ما

كانت هٰذه الأخيرة عاملًا مساعدًا على هجرانها، وعاملًا مؤجّجًا لمشاعر الحنق والأسى ضدّها، مضافًا إلى أنّها لم ترتقّ في توجيهها وتعليمها للناس إلى المستوى الّذي يليق بالإنسان العاقل أن يتعلّمه، بل نهجت في أغلب الأحيان منهج التعليب والتلقين، واعتمدت التجييش العاطفيّ سبيلًا لتجميع الجماهير، والترهيب الفكريّ ملاذًا لقمع محاولات الفهم والتصويب.

ومن هنا أخي القارئ، فإنّي وإن كنت قد نهجت في هٰذه العجالة نحو كشف الزيف الّذي يتسلّح به الملحدون، إلّا أنّ الحقيقة هي أنّ الهدف الحقيقيّ هو كشف زيف المنظومة المادّيّة الّتي نجحت في استمالة عقول العديد من ضحاياها، وجنّدتهم دون علمٍ منهم لدعمها تحت شعاراتٍ لو علم عامّة الملحدون أنفسهم حقيقتها لتبرّؤوا منها، ولأبوا إلّا العمل لمواجهتها؛ ولذٰلك فإنّي أهيب بهم أن يقفوا هنيهةً ومن ثمّ يفحصوا الدافع الرئيسيّ لإلحادهم، وينظروا ليروا مدى سلامة هٰذا الدافع ونزاهته وموضوعيّته، قبل أن يمضوا في مسيرتهم، وإذا ما حاروا فليقفوا ولا يتهوّروا.

المصادر

المصادر العربية:

1. نهج العقل.. تأسيس الأسس وتقويم النهج، محمد ناصر، نشر أكاديميّة الحكمة العقليّة 2014م.
2. الفلسفة تأسيسها تلويثها تحريفها، محمد ناصر، نشر أكاديمية الحكمة العقليّة، 2014م.
3. أصول المعرفة والمنهج العقليّ، أيمن المصري، نشر أكاديمية الحكمة العقليّة، 2013م.
4. صانع الساعات الأعمى، ريتشارد دوكينز، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي2002م.
5. وهم الإله، ريتشارد دوكينز، ترجمة بسام البغدادي 2009م.
6. كونٌ من لا شيءٍ، لورانس كراوس، ترجمة غادة الحلواني 2015م.

المصادر الأجنبية:

1. Science and Hypothesis, Henri Poincaré, Dover Publications, 1952.
2. Galileo's Logical Treatises: A Translation, with Notes and Commentary, of His Appropriated Latin Questions on Aristotle's Posterior Analytics, William A. Wallace, Springer Netherlands 1992.
3. The Aristotelian Tradition and the Rise of British Empiricism,

Logic and Epistemology in the British Isles (1570–1689), Marco Sgarbi 2012.

4. The last superstition, Edward Feser, 2008.
5. Scholastic Metaphysics: A Contemporary Introduction, Edward Feser, 2014.
6. An Enquiry Concerning Human Understanding, David Hume, Oxford University Press 2007.
7. Dialogues concerning Natural Religion, David Hume, Cambridge University Press 2007.
8. An Essay Concerning Human Understanding, John Locke, the Pennsylvania State University 1999.
9. Critique of Pure Reason, Immanuel Kant, Palgrave Macmillan UK 2007.
10. Free Will, Sam Harris March 6, 2012.
11. The End of Faith, Sam Harris August 11, 2004.
12. The Moral Landscape, Sam Harris, October 5, 2010.
13. Breaking the Spell: Religion as a Natural Phenomenon, Daniel Dennett 2006.
14. Science and Religion: Are They Compatible? Alvin Plantinga and Daniel Dennett, 2011.
15. The Grand Design, Leonard Mlodinow and Stephen Hawking, September 7, 2010.
16. Why Religion is Immoral: And Other Interventions, Christopher Hitchens, November 11th 2014.

المحتويات